مفهوم التحدي والإعجاز
بين الآيات القرآنية والآيات البرهانية

الدكتور: حسن محمد أحمد محمد
السودان

الملخص

يحاول الباحث من خلال هذه الدراسة أن ينفض الغبار عن موضوع يكاد يكون مسلمًا به في الرواية التاريخية والتفاسير القرآنية وهو موضوع راسخ في أذهان الخاصة ومتداول على ألسنة العامة، ولعله موضوع غير مطروق لدى الكثير من الناس جريًا على عادة الخمول الذهني والسير في ركاب الآخرين دون إعمال للفكر والعقل؛ اتخذ الباحث من هذا الباب مدخلاً لتقديم فكرة مغايرة ومختلفة وغير تقليدية لمفهوم لفظي التحدي والإعجاز، ذلك المفهوم الذي ملأ كتب القدماء وسار على نهجهم المحدثون من العامة والعلماء متحدثين عن إعجاز القرآن العظيم، من أمثال:

الباقلاني: أبو بكر، محمد بن الطبيب بن محمد (338 – 403هـ)

الرماني: أبو الحسن، علي بن عيسى الرماني (276–384هـ)

الخطابي: أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطاب (319–388هـ).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب (150–255هـ)..

تم تقسيم هذه الدراسة البحثية إلى مقدمة وخاتمة وأربعة محاور؛ أولاً: تعرض هذا المحور إلى القرآن والتفكير العقلي. ثانيًا: الرسل بين التحدي والإعجاز، وجاء الحديث فيه عن المفهوم التقليدي لفكرة التحدي والإعجاز. ثالثًا: محور الأدلة المادية والنواميس الكونية، وقد خصص للحديث عن آيات القرآن وآيات البرهان. رابعًا: خصص هذا المحور للحديث عن الرسالة الخاتمة.

الكلمات المفتاحية: القرآن العظيم.، الآيات القرآنية.، الآيات البرهانية.، الإعجاز.، التحدي.

المقدمة

إن المتأمل لآيات الرسل السابقين، على الإسلام، يجد أن جميعهم قد ركزوا جهودهم على مخاطبة الجانب المادي والحسي في الإنسان، أي أن جميع الرسل والأنبياء، عليهم السلام، والذين عرفتهم البشرية، حاولوا اقناع الناس بآيات برهانية حسية أي أنها تقوم على الدليل المحسوس والملموس والمشاهد، ويمثل الخسف بقارون وكنوزه الأرض نموذجًا حسيًا ماديًا، حيث وقع الحدث في وضح النهار وتحت سمع وبصر جمهرة من الناس لا يمكن تكذيبها بالمطلق؛ وكان الغالب على سامعي النبوءات أن يطلبوا آية أو أن يقدم الرسول، بنفسه، دليلاً يؤكد صدق رسالته وأنه يتكلم وينطق بوحي من الله[1]. فلا يوجد رسول مرسل إلا وقد دعم أقواله بدليل مادي محسوس وآية ملموسة. إن عصا موسى انقلبت حية، وأن البحر انفلق، وأن يداً خرجت بيضاء من غير سوء، وأن بشراً خلق من تراب، وأن آخر ولدته أنثى من غير ذكر، وأن ناراً مؤججةً طرح فيها إنسانٌ فصارت له برداً وسلاماً، وأن رجلاً مات مائة عامٍ ثم بعث فنظر إلى طعامه وشرابه فوجدهما على حاليهما لم يتغيرا، وأن قبراً تفقأ عن ميتٍ حيى، وأن طيناً دبر فنفخ فيه فطار، وأن قمراً انشق، وأن جذعاً حن، وأن ذئباً تكلم، وأن ماءً نبع من أصابع فروى منه جيشٌ عظيم، وأن جماعةً شبعت من ثريدةٍ في قدر جسم قطاة[2].

وهذا هو نوح، وهو النبي الثاني بعد آدم، عليهما السلام، قد أنزر قومه وحذرهم من الطوفان وبنى الفلك كدليل على صدق دعواه؛ يقول تعالى:

(وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ

1/ عباس محمود العقاد: حياة المسيح، ص:27، الإدارة العامة للنشر (مصر) 2005م.

2/ أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ص: 199.

سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) هود:37-41.

أما إبراهيم، عليه السلام، فقد تمثلت آيته في خروجه حيًا من النار؛ يقول تعالى:

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) الأنبياء: 68-70.

وكانت الناقة هي آية صالح، عليه السلام، التي قدمها لقمه؛ يقول تعالى:

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) القمر: 27-31.

وتتزايد أعداد الآيات البرهانية على يد موسى وكذلك من بعده عيسى، عليهما السلام، حيث قدم كلاهما عددًا من الآيات البينات القائمة على الأدلة الحسية والبراهين المادية المشاهدة المحسوسة[1]؛ يقول تعالى:

(وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) آل عمران:49.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الزخرف: 46-48.

ومع تكاثر تلك الآيات البرهانية وتزايد أعداها إلا أن قلوب البشرية لم تلن وعقولهم لم تستجب لدعوة التوحيد التي حملها الرسل وجاءوا بها من عند الله تعالى؛ يقول تعالى:

(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) الإسراء: 59.

1/ أبو منصور الثعالبي: التمثيل والمحاضرة، ص: 16. موسوعة الشعر العربي، www.poetry.com

. موضوع الدراسة:

يتكون نسيج هذه الدراسة البحثية من محاور أربعة تحمل في ثناياها فكرة مختلفة عن بعض ما درج الناس على تلقيه وتتبنى مفهومًا مغايرًا وغير تقليدي لما اعتادوا على سماعه وقراءته عن فلسفة الآيات البرهانية ومفهوم الآيات القرآنية، ويهدف الباحث، من خلال هذه الدراسة، إلى محاولة تغيير المفهوم النمطي والشرح التقليدي للفظي "التحدي والإعجاز"، واللذي تناقلته أقلام الخاصة ودرجت على استخدامه ألسنة العامة، وكأنه أمر غير قابل للجدال ، والباحث، من هذا المنطلق، يريد أن يبين أن فكرة التحدي والإعجاز لا وجود لهما ولا يمكن أن يقوم صراع بين طرفين، لا يوجد تكافؤ ولا تقارب بينهما على الإطلاق، وهما: الله، تعالى، من جانب والإنسان، المخلوق الضعيف من جانب آخر؛ إذ إن هذا الفهم النمطي التقليدي المنطلق من وجود التحدي، الخاسر جملة وتفصيلا، والإعجاز المفروغ منه؛ هو فهم لا يتفق والعقل السليم والمنطق السوي.

. أهمية الدراسة:

تتأتى قيمة هذه الدراسة وأهميتها من خلال ما تسعى إلى تحقيقه، ألا وهو العمل على تغيير فكرة قديمة ومفهوم راسخ ومتجذر في أذهان الخاصة قبل العامة، وهو أمر لا شك في أنه يتسم بصعوبة بالغة، ولكن يكفي أن تنال هذه الدراسة شرف المحاولة، فترمي بحجر في بحيرة ساكنة.

. أهداف الدراسة:

تتلخص أهداف هذه الدراسة في النقاط التالية:

- ❖ إن البرهان العقلي أكثر تأثيرًا في النفوس، من حيث الإيمان، من البرهان المادي الحسي.
- ❖ العمق الإيماني، بوجود خالق واحد قادر يستند إلى الدليل العقلي المعنوي أكثر منه إلى الدليل الحسي المادي.
- ❖ تقديم وجهة نظر تتسم بالموضوعية والعقلانية، حول مفهوم التحدي والإعجاز.

. المنهجية:

تقوم هذه الدراسة على استقراء التاريخ؛ وعليه فسيكون الاعتماد على اتباع المنهج التاريخي الوصفي والقائم على قواعد: الاستقراء والتحليل والمقارنة والاستنباط والاستنتاج ..، فهو المنهج الأصلح والأنسب لمثل هذه الدراسات.

المحور الأول

القرآن العظيم والتفكير العقلي

يقول العقاد: إن المدلول العام للفظ عقل يعني: ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي, أو المنع من المحظور والمنكر ومن هنا كان اشتقاقه من مادة (عقل), وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية تتوارد في اللغات الإنسانية الكبرى، التي يتحدث بها مئات الملايين، فإن كلمة (mind) وما خرج من مادتها في اللغات الجرمانية تفيد معنى الاحتراس, وينادى بها الغافل الذي يحتاج إلى تنبيه[1]. ومن خصائص العقل ملكة الإدراك التي يناط بها الفهم والتصور، كما يتأمل العقل في ما يدركه ويقلبه على وجوهه، ليصل إلى الأحكام من خلال الاستنتاج، وعلى الجملة فإن خصائص العقل تجمعها ملكة[2] (الحكم) وملكة (الحكمة) وقد ورد لفظ الحكمة في ثنايا آي القرآن العظيم ست عشرة مرة؛ نورد منها قوله تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) البقرة: ٢٦٩.

(ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا) الإسراء: ٣٩.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) لقمان: ١٢.

وليس من شك في أن الإسلام هو الدين الوحيد، من بين جميع الأديان، الذي اهتم بمخاطبة العقل البشري، ويقول المفسرون والعلماء لأجل ذلك كرم الإنسان ووضع موضع التقدير والاحترام؛ يقول تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) الإسراء :70.

1/ المصدر السابق، ص:18.

2/ محمد بن علي بن محمد بن عربي: الفتوحات المكية، ص: 269.

والتنويه بالعقل هو نتيجة حتمية يستلذمها لباب الدين وجوهره ويرغبها كل من عرف كنه الإنسان ودواخله[1]. فالدين الإسلامي لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه الكهنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الشخص قرباناً يسعى إلى المحراب بشفاعة من وليّ متسلط أو صاحب قداسة مطاعة، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل ويقضي بالحرمان أو النجاة، فليس في هذا الدين من أمر يتجه إلى الإنسان عن طريق الكهان، ولن يتجه الخطاب إلا إلى العقل حراً طليقاً من سلطان الهياكل والمحاريب. والقرآن العظيم يدعو العقل إلى التفكر والتدبر بكلمات وعبارات تحمل معان يدرك كنهها العقل السليم، في مواضع عديدة ومختلفة:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) آل عمران:191.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) البقرة: 219.

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ) الأنعام: 50.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) النحل: 11.

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) الروم: 8.

(انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) الأنعام 65.

(أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ * قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ) الأعراف : 185.

(قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ).

1/ محمد بن أحمد بن منصور الأبشهي: المستطرف في كل فن مستظرف، ص: 63.

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) الغاشية :17 . 20.

(أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) ق: 6

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) السجدة: 27.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ) آل عمران: 13.

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) ص: 29.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) محمد :24.

(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) الرعد: 19.

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ) البقرة :151.

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) الكهف: 66.

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) العلق: 4 ، 5.

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) الكهف: 66.

والإسلام بقدر ما هو دين عدالة ومساواة وهو دين يهتم بالجماعة ويحض عليها إلا أنه في أمر العقل والتعقل[1] يلزم الفرد بعمله، فهو يجعل لكل طائره في عنقه:

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ) الإسراء: 13.

(وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ) الأنعام: 164.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) المدثر: 38.

(وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) الطور: 21.

(وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى) النجم: 40.

وتأتي مزية العقل، في الإسلام، مقدرة لا موضع فيها للمصادفة، وإنها لوصايا منطقية وعقلانية في دين يفرض المنطق والتعقل على كل مستمع للخطاب قابل للتعليم؛

1/ عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون: المقدمة، ص: 104.

وإلا صارت العبادات أفعال تؤدى بلا معنى. يقول العقاد: حينما يكون العمل بالعقل أمراً من أوامر الخالق يمتنع على المخلوق أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله، أو خوفاً منه، ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الجماعات من الخلق تحيط بالخلق وتتعاقب مع الأجيال[1]. من هذا الباب يجب على الإنسان أن يعمل فكره وألا يعطل عقله مهما كانت الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى احجام العقل عن العمل:

1. عبادة السلف التي يسمونها العادة والعرف.
2. الاعتقاد الأعمى بأصحاب السلطة الدينية.
3. الخوف من ذوي النفوذ والسلطة الدنيوية (الساسة).

ومن المؤكد، الذي لا ريب فيه، أن الله لا يرضى للفرد أن يلقي عقله اتكالاً على من سبقوه من الآباء أو الأجداد؛ يقول تعالى:

(وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) الأنعام: 116.

(وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى) النجم:39-40.

خلاصة القول هي أن القرآن العظيم قد اختص بكثير من المزايا، وهو أمر حتمي وطبيعي ومن زاد على ذلك فكأنما يهدي إلى الشمس شعلة أو إلى المحيط قطرة أو إلى الفردوس زهرة[2]. ولكن مزية التركيز على سمو العقل البشري[3] والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعية والتكليف في القرآن؛ هي التي استحوزت على الحيز الشاسع والمساحة الأوسع؛ يقول تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) آل عمران: 190-191.

---

1 / العقاد: التفكير فريضة إسلامية ، ص: 18، دار الهلال (مصر) .

2/ أبو منصور الثعالبي: الإعجاز والإيجاز، ص: 1.

3/ علي بن محمد بن عباس التوحيد أبو حيان: البصائر والنظائر، ص: 202.

وقد تميز القرآن العظيم، بهذه المزية، عن سواه من الكتب الأخرى؛ ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو ضمنية إلى العقل[1]، غير أنها تأتي عرضاً وغير مقصودة، وربما يلمح فيها القارئ، أحياناً، بعض الزراية بالعقل أو التحذير ضده، ولكن الإسلام لا يذكر العقل[2] إلا في مقام التعظيم، ولا تأتي الإشارة إليه عرضاً أو مقتضبة في سياق الآية بل يأتي الكلام عن العقل في كل موضع مؤيدًا ومؤكدًا باللفظ والدلالة, وتتكرر في كل موضع من مواضع الأمر أو النهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، ولا يأتي الحديث بمعنى واحد عن العقل، وإنما يشمل الحديث كل الوظائف والملكات العقلية لدى الإنسان، على اختلاف أعمالها وخصائصها، فلا يقف خطاب العقل عند العقل الوازع ولا العقل المدرك، ولا عند العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصائب، بل يعم الخطاب كل ما يتسع له العقل البشري[3]؛ يقول تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) آل عمران: 164.

(وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) النساء: 113.

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) الجمعة:2.

1/ محمد بن حسين الحارثي العاملي: الكشكول: ص: 780.

2/ عبد الرازق بن حسن بن إبراهيم البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ص: 131.

3/ عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية ، ص: 5، دار الهلال (مصر).

المحور الثاني

الرسل بين التحدي والإعجاز

ليس من المستغرب بل من المعتاد، عند الرسل والأنبياء، أن يقدموا، بين يدي دعواهم ورسالاتهم، الأدلة والبراهين الدالة على أمانتهم وصدقهم، وقد أطلق الناس على تلك الأدلة والبراهين بعض الألفاظ الدلالية التي تشير إلى عظمة الحدث وتعظيم الواقعة، كيف لا، وهي تمثل فعلا وحدثًا ربانيًا خارقًا للقوانين والنواميس الكونية الثابتة في أذهان العامة من الناس والراسخة في عقول الخاصة من أهل العلم والمعرفة؛ فجاءت الدلالة اللفظية متوافقة ومتطابقة مع ضخامة الحدث وجلال الموقف وقوة وقعه وتأثيره في النفوس البشرية، فسميت بالمعجزات، والخوارق، والآيات الكونية ..

. تعريف المعجزة:

إن المعجزة، اصطلاحًا، هي: المعجزة، أمر خارق للعادة يُظهرُه الله على يد صاحب الرسالة، برهانًا قاطعًا على صدقه، وأنه مُبَلّغٌ عن الله. وفي المعاجم اللغوية، الآيَةُ هي: العلامة، والأَصل أَوَيَةٌ بالتحريك. وجمع الآيةِ، آيٌ وآياءٌ وآياتٌ وأنشد أبو زيد:

لم يُبْقِ هذا الدهرُ من آيائه * غَيْرَ أَثَافيهِ وأَرْمِدائِهِ[1]

ومن الواضح أن فخامة الألفاظ هنا تشير، إشارة قوية، إلى الإعلاء من شأن الموقف الروحي في النفس وتضخيم الموقف بشكل ملفت للحواس، ظاهرة كانت أم باطنة. يقول السهيلي: "غير أنه لا يسمى معجزة في اصطلاح المتكلمين إلا ما تحدى به الخلق، فعجزوا عن معارضته"[2].

وبالمجمل يمكن القول بأن ما قدمته الرسل، عليهم صلوات الله وسلامه، من آيات توكيدية، تؤكد أنهم، بالفعل، مبعوثون من قبل خالق هذا الكون وما فيه من موجودات، وموجده قبل أن يكون على ما هو هليه، والرسل، جميعهم، قد جاءوا برسالة ذات مضمون واحد وهو، التوحيد، والتوحيد يقتضي الوجود، أي أن الإيمان بوحدانية الإله تتطلب

1/ إسماعيل بن حماد الجوهري: مخار الصحاح، (مادة: أ. ي. ا).

2 / عبد ارحمن بن عبد الله ... السهيلي: الروض الأنف، ص: 317، موسوعة الشعر الربي، اصدار 2004م.

الإيمان، أولاً، بوجود الإله، ولا ينتهي مفهوم الإيمان عند هذا الحد بل لا بد من توفر عنصرين آخرين، العنصر الأول أن نثبت للإله كل صفات الكمال والجلال، وبهذا نثبت له القدرة، المطلقة، على خلق الوجود وما فيه من موجودات. ومن هنا ينبثق العنصر الثاني وهو، أن القدرة المطلقة، التي أثبتناها، تستدعي الإيمان بإعادة البعث بعد والموت وبالتالي الحساب؛ وبذلك تتكامل القضايا الإيمانية الأربعة الرئيسة:

- الإيمان بوجود الإله المطلق من حيث صفات الكمال والجلال:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الشورى: ١١.

- الإيمان بالتوحيد المطلق:

(وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ) البقرة: ١٦٣.

- الإيمان بأن الإله الواحد هو خالق الوجود والمتصرف فيه؛ يقول تعالى:

(أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) يس: ٨١.

- الإيمان بقدرة الإله على البعث ومن ثم الحساب:

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) لقمان: ٢٨.

والمعجزة هي دليل الرسالة والبرهان على صدق الرسول:

أ- معنى المعجزة:

المعجزة: هي أمر ممكن من ناحية العقل، مخالف للعادة، يجريه الله على يد أحد الأنبياء، ويكون الأمر مقروناً بدعوى النبوة، وموافقاً لدعواه على وجهٍ يعجز المنكرين عن الإتيان بمثله.

ب- الحكمة من المعجزة:

إن الله سبحانه وتعالى يجري المعجزات على أيدي أنبيائه ورسله التي تخرق المعتاد والمألوف في قوانين الكون وأنظمته حتى تضع الباحث أمام البرهان الواضح الدال على صدق الرسول أو النبي.

ج- أنواع المعجزات:

1- القول: مثاله القرآن الكريم:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) **الإسراء: ٨٨.**

2- الفعل: مثاله، ما جاءت به الرسل الآيات المبينات:

(وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) آل عمران: ٤٩.

3- الترك: مثاله عدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام:

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) الأنبياء: ٦٨ – ٦٩.

د- الشروط المتوفرة في المعجزة:

الشرط الأول: خرق العادات والمألوف: إذا لم يتحقق خرق العادة والمألوف في قوانين الكون وأنظمته الدائمة فليست بمعجزة.

الشرط الثاني: تكون المعجزة على يد نبي أو رسول: لا تتحقق المعجزة ككونها معجزة إلا إذا كانت على يد مدعي النبوة أو الرسالة، فإن تم الأمر الخارق على يد أحدهما (النبي والرسول) كان هذا الأمر معجزة.

الشرط الثالث: التعجيز: أن تعجز الناس عن المعارضة بمثلها على الصورة الخارقة التي تم تحديهم بها.

. الرسل والآيات البينات:

لقد بعث الله، تعالى، الرسل والأنبياء عبر جميع الأزمنة والعصور، وقد أيدهم بالعديد من الآيات البينات، ليبرهنوا ويؤكدوا للناس أنهم رسل مبعوثون من الله، تعالى، فانقسم الناس بين مؤمن مصدق وبين كافر مكذب بأولئك الرسل وبآياتهم التي تم عرضها على كل قوم أو أمة من الأمم، واليوم نحن نستهول النبوءة، كما يقول العقاد، إذ إننا نعلم يقينًا أن الذي يقدم على ادعاء النبوءة في عصرنا هذا يقدم على خارقة مستغربة، ويعرض نفسه لاتهام المتدينين قبل المنكرين الملحدين، فالمتدينون يؤمنون بختام النبوءات ويرون في الدعوة الجديدة انتقاصًا لعقائدهم، والمنكرون لا يؤمنون بالنبوءة من الأصل، لا اليوم

ولا من قبل[1]. كذلك ورد في الكتاب المقدس، العهد القديم، "فإذا قام في وسطك نبي أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو أعجوبة، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو صاحب الرؤيا إن دعاك إلى عبادة آلهة أخرى ...، ولو صدقت الأعجوبة أه الآية" التثنية: 13. ويقول رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم، (ما من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)[2]. وعليه نرى أنَّ الأنبياء، عليهم السَّلام، قد أوتي كل منهم من الحجج والدَّلائل والبراهين ما يؤيد دعواه ويدعم رسالته ويؤكد على صدقه وصحة ما جاء به عن ربه، وبهذا يمكن القول بأن الرسل والأنبياء قد قدموا ما فيه الكفاية من الحج الدامغة والبراهين القاطعة لإقناع الذين إليهم بعثوا، سواء أن آمنوا فاستحقوا الأجر والمثوبة، أم جحدوا فاستحقوا العقوبة. وقوله، صلى الله عليه وسلم،: (وإنما كان الذي أوتيت ...) أي: جلَّه، وأعظمه الوحي الذي أوحاه إليه وهو القرآن الحجَّة المستمرة الدَّائمة القائمة في زمانه وبعده، فإنَّ البراهين التي كانت للأنبياء انقرض زمانها في حياتهم[3].

لقد أرسل الحق، جلّ وعلا، الكثير من الرسل والأنبياء، في الأمم التي خلت من قبل، وهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا الحق، جلّ وعلا، يقول تعالى: **(وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ) الزخرف: 6.**

وقد جاء في تفسير القرطبي لقوله تعالى: (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ) (كَمْ) هنا خبرية والمراد بها التكثير والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء[4]. وفي فتح القدير: ثم سلى سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال: (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ) كم

1/ عباس محمود العقاد: حياة المسيح، ص:25، الإدارة العامة للنشر (مصر) 2005م.

2/ مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، ج1، ص: 134، دار إحياء التراث العربي، (بيروت).

3/ ابن كثير: البداية والنهاية، ص: 3982.

4/ تفسير القرطبي، ج16، ص:57.

هي الخبرية التي معناها التكثير والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة[1]. كذلك قال تعالى:

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى) المؤمنون:44.

جاء في تفسير الطبري: يقول تعالى ذكره (ثُمَّ أَرْسَلْنَا) إلى الأمم التي أنشانا بعد ثمود (رُسُلَنَا تَتْرَى) يعني: يتبع بعضها بعضا وبعضها في أثر بعض وهي من المواترة وهي اسم لجمع مثل شيء[2]، وفي تفسير ابن كثير (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى) قال ابن عباس يعني يتبع بعضهم بعضا[3].

وليست هناك من شك في أن كل رسول، من أولئك الرسل، قد جاء إلى قومه وهو يقدم بين يدي دعواه ما يؤيدها ويؤكد صدق رسالته بالآيات البينات والبراهين .. وغيرها مما يثبت، أنه رسول من الله تعالى، يقول تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) الروم:47.

والمعنى أن الرسل قد جاءوا بالأدلة والبراهين الواضحة البينة التي لا لبس فيها ولا شك، حيث نلاحظ تكرار وصف الآيات بالبينات أو مبينات في العديد من آي القرآن العظيم، يقول تعالى:

(وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) المجادلة:5.

(رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ) الطلاق: 11.

والملفت للنظر هو أن القرآن العظيم لم يذكر لفظي معجزة ولا تحد في أي من آياته، ولو من باب الإشارة وإنما ذكر لفظي (معجزين/ معاجزين) كوصف للكافرين وغيرهم، يقول تعالى:

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) النور:57.

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ) سبأ: 5.

1/ فتح القدير، ج4، ص:779.

2/ تفسير الطبري، ج9، ص:215.

3/ تفسير ابن كثير، ج3، ص:329.

من هنا يمكن القول بأن إنتشار فكرة المعجزة أو الإعجاز وما صاحبهما من تفشٍ لمفهوم التحدي المزعوم بين الخالق والمخلوق، تقتضي، عقلاً ومنطقًا، وجود المساواة بين الطرفين المتنافسين وهما المُعْجِزُ (بالكسر) وهو صاحب الأمر المُعجِز، والمُعْجَز (بالفتح) وهو من يطلب إليه أن يأتي بفعل مماثل لذلك الأمر المُعجِز، أو بمعنى آخر، أن المُتَحَدِي (بالكسر)، يطلب إلى المُتَحَدَى (بالفتح)، أن يفعل مثل ما فعل المُتَحدِي، وفي حال عجز المُتَحَدَى عن أن ينفذ ما طلب إليه تنفيذه يصبح المُتَحِدي منتصرًا والمُتَحَدَى مهزومًا. ولكي يكون هذا القانون نافذًا ويمثل منتهى العدل لابد من توفر كفتي ميزان متعادلتين أو متقاربتين، كحد أدنى، ومن المؤكد أن ذلك الميزان المطلوب توفره هو (المساواة/ التقارب) لم ولن يتوفر على الإطلاق في الكثير من أقوال الفقهاء وتفاسيرهم التي شرحوا فيها آي القرأن العظيم، حيث نجدهم قد أقحموا مسألة المعجزة والتحدي دون مبرر في كثير من تفاسيرهم؛ مما جعل الخاصة والعامة يسيرون في ركابهم، دون تفكير منطقي.

وهنا يمكن القول بأن التنافس لا يمكن أن يتم إلا في حالتين لا ثالث لهما:

. الحالة الأولى: أن يرتفع ذلك المخلوق الضعيف الحقير (الإنسان)، الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئا، ليكون ندًا لخالقه.

. الحالة الثانية: أن ننزل الخالق (جلَّ وعلا) من عليائه وسموه؛ ليتساوى مع ذلك المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرا.

ولا شك في أن كلتا الحالتين يستحيل حدوثها، فعلاً وعقلاً؛ إذًا فهو أمر بعيد ومستبعد الحدوث، ولكن ربما يقول قائل إن المنافسة والتحدي لم تكن بين الخالق (بعظمته) والمخلوق (بحقارته)؛ وإنما المنافسة والتحدي المُعْجِز بين الرسل (عليهم السلام)، وهم بشر، وبين أولئك الذين يرفضون التصديق والإيمان برسالاتهم من جهة ثانية، وهم كذلك بشر. لنذهب خلف ذلك القول، ونزعم بأن التحدي هو بين أصحاب الرسالات وبين أناس كفروا بالرسالة، وهنا لابد من سؤال: أليس أولئك الرسل (عليهم السلام) مؤيدين بالقوة الإلهية التي لا تغلب ولا تقهر؟؟ فكيف، إذًا، كيف لمخلوق ضعيف أن يقف أمام قوة شخص مماثل له ومساو له؛ ولكنه مؤيد بقوة خالق يمتلك كل صفات

الكمال والجلال والعظمة والكبرياء والجبروت!!؟؟، أليس في مثل هذا القول الكثير من الغرابة؟ جاء في صحيح البخاري: عن سلمة بن الأكوع، رضي الله عنه، قال: مر النبي، صلى الله عليه وسلم، على نفر من أسلم ينتضلون فقال: رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا وأنا مع بني فلان). قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم. فقال: رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (ما لكم لا ترمون)؟ فقالوا يا رسول الله نرمي وأنت معهم قال: (ارموا وأنا معكم كلكم)[1]. فإذا كان أولئك القوم لم يستطيعوا أن يقفوا ندًا لرسول الله، صلى الله عليه وسلم ببشريته، إذًا فمن المحال أن يتأتى للمخلوق الضعيف أن يقف أمام جبروت وعظمة الخالق إلا في حالتين:

. الأول: أن نؤمن بأن جميع الرسل (عليهم السلام) مؤيدين بنصر من الله تعالى؛ ومن ثم فإن كفتي الميزان غير متعادلتين، وبذلك ينتفي مفهوم فكرة الإعجاز والتحدي المزعوم.

. الثاني: أن نرفض فكرة أن الرسل مؤيدين بنصر من عند الخالق البارئ المصور..؛ وبذلك نوقع أنفسنا بين براثن مشكلة عويصة لا فكاك ولا خلاص منها؛ إلا بالتوبة والإنابة إلى الله تبارك وتعالى.

كما أن هناك أمرًا آخر، يجب أن يؤخذ في الحسبان، وهو أن الرسل، أنفسهم، لم يدع أحد منهم بأن ما قدمه من آية وبرهان ودليل هو من عنده كبشر، بل هو من صنع الله القدير الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ند، يقول القاضي عياض: ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة، إن الأنبياء عليهم السلام، يفعلون المعجزات من ذاتهم. وإنما هو شيء يفعله الله تعالى على أيديهم، تصديقاً لهم، يجري مجرى الشهادة[2].

ومن ثم فمن باب أولى ألا يكون هناك مجال للمقارنة بين القدرة الإلهية اللامتناهية في القوة، والإمكانات البشرية اللامتناهية في الضعف البشري.

1/ صحيح البخاري، ج3، ص:1234.

2/ القاضي عياض بن موسى بن عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ص: 1247.

لنضرب لذلك مثلاً، ولله المثل الأعلى، حتى نقرب ما طرحناه من مفهوم مخالف للرأي السائد من قبل عن مفهوم التحدي والمعجزة، والمثال يقوم على التنافس والتحدي بين فتىً، في عنفوان شبابه وفتوته وقد تمرس على ممارسة رياضة الملاكمة منذ نعومة أظفاره، وبين عالِم، ولكنه شيخ هرم قد بلغ من العمر عتيا، وقد قضى كل سنوات عمره بين أضابير الكتب. والحقيقة هنا هي أن التنافس منعدم فلا الفتى سيصبح عالمًا في يوم وليلة ليتحدى الشيخ في ميدان العلم، ولا الشيخ سيصبح بطلاً في الرياضة ليتبارى مع الفتى في حلبة الملاكمة، ولكن لنفترض جدلاً أن التنافس قد حدث، فإن جندل الفتى الشيخ في حلبة الملاكمة، أو أطاح الشيخ بالفتى في حلبة العلم والمعرفة، فكلا الأمرين أمر عادي وطبيعي ولا غرابة فيه تدعونا إلى أن نصنع من الحدث إعجازًا أو معجزة. ولكن إن حدث العكس فذلك هو الإعجاز، ففي حال انتصر الفتى على الشيخ في ساحة العلم والمعرفة، أو انهزم الفتى أمام لكمات الشيخ، فهذا هو الأمر الصاعق الذي يدعو إلى الغرابة والدهشة والاستعجاب. يقول خبراء صناعة الخبر الإعلامي: أن يعض الكلب رجلاً فهذا ليس بخبر يستحق النشر، أما أن يعض الرجلُ كلبًا فهذا هو الخبر. فعلى سبيل المثال: حينما يتمكن الطبيب من أن يجعل الأعمى يرى والأصم يسمع والأخرس يتكلم .. ويعالج العديد من المرضى ممن عجز أقرانه الآخرون عن علاجهم، هنا تتوفر عناصر المعجزة لأن المساواة البشرية والعلمية قد توفرت ولكن إحدى كفتي الميزان قد رجحت لصالح ذلك الذي فعل ما عجز عنه أقرانه، وليست المعجزة هي بأن نأتي بحديث لا يتقبله العقل الفطن والمنطق السليم، فننزل الإله، جلَّ وعلا، من عليائه ليتنافس مع خلقه ويتحداهم، أو أن نقوم برفع بشر من حضيض دنياه (أسفل سالفلين) إلى علياء الخالق. وكيف يمكن أن يكون هناك تحد والله يعلم أنهم لن يتمكنوا من أن يأتوا بشئ مما طُلب إليهم الأتيان به، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا حتى في المستقبل؛ بهذا نخلص إلى أن الأمر الطبيعي لا يثير الدهشة أو الاهتمام ولا يمكن أن يلفت إليه النظر، يقول أبو يزيد البسطامي:

عجبت لمن يقول ذكرت ربي * وهل أنسى فأذكر ما نسيت
شربت الحب كأسًا بعد كأس * فما نفد الشراب وم رويت

فإن أنت نظرت إلى هذا الإبداع الإلهي وما حواه الكون من عجائب وغرائب؛ ينبغي ألا تندهش وأن لا يحار عقلك في صنع الخالق المبدع، لأنه أمر طبيعي بالنظر إلى القدرات الإلهية بل قل: إن في الإمكان أروع وأبدع مما كان وحتى مماسيكون؛ يقول تعالى:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) ق: ٣٥.

لقد لجأ المفسرون، دون استثناء تقريبًا، إلى القول بالتحدي قولاً واحدًا؛ وابرزوا صورة التحدي، المزعوم، بين الله، تعالى، وبين الكفار والمشركين، وإن نحن تتبعنا تلك التفاسير فسنجد أن صورة التحدي هي الأكثر بروزًا في مجمل التفاسير المتداول قراءتها بين الخاصة والعامة، لاسيما في الآيات التي أسموها بآيات التحدي، وقد ذكر الباقلاني، "أن النبي (صلى الله عليه وسلم) عرف كون القرآن معجزًا، حين أوحي إليه من قبل أن يقرأه على غيره أو يتحدى به غيره" ويقول في موضع آخر: " والذي يدل على أنهم عاجزين عن الأتيان بمثل القرآن: أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي وجعله دلالة على صدق نبوته ...[1]، كذلك ذهب الباقلاني إلى أن التحدي واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة، التي هي عبارة عن كلام الله تعالى، في نظمها وتأليفها وهي جكاية لكلامه، ودلالات عليه، وإمارات له[2]. وإن نحن تتبعنا تلك التفاسير فسنجد أن صورة التحدي هي الصورة الأكثر بروزًا في مجمل التفاسير المتداول قراءتها بين الخاصة والعامة، لاسيما في الآيات التي أسموها بآيات التحدي، يقول تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) البقرة: 23.

(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) الطور:34.

أَ(مْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) هود: 13.

1/ أبو بكر محمد بن الطبيب الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 62، دار المعارف (القاهرة)، ط:5.

2/ نفس المصدر، ص: 85.

سنورد في ما يأتي، وبإختصار شديد، تلك التافسير التي قال أصحابها بالتحدي، في ما سبق من آيات، باعتباره الشكل الأمثل للتفسير:

- **تفسير الطبري:** وتحداهم بمعنى التوبيخ[1].
- **تفسير ابن كثير:** أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم وذلك أكمل من التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئا من العلوم وبدليل قوله تعالى **(فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ)** وقوله **(لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)**، وقال بعضهم من مثل محمد صلى الله عليه وسلم يعني من رجل أمي مثله والصحيح الأول لأن التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة[2].

فتح القدير: وما يدفع الشبهة في كون القرآن معجزة فتحداهم بأن يأتوا بسورة من سوره[3].

تفسير البغوي: ليعلم أن التحدي واقع على جميع سور القرآن ولو أدخل من في سائر السور كان التحدي واقعا على جميع سور القرآن ولو أدخل خفي سائر السور كان التحدي واقعا على بعض السور. **(وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ)** أي واستعينوا بآلهتكم التي تعبدونها **(من دون الله مِنْ دُونِ اللَّهِ)** وقال مجاهد: ناسا يشهدون لكم **(إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)** أن محمدا، صلى الله عليه وسلم، بقوله من تلقاء نفسه فلما تحداهم عجزوا فقال: **(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) البقرة:24**[4].

تفسير البيضاوي: ولسائر آيات التحدي ولأن الكلام فيه لا في المنزل عليه فحقه أن لا ينفك عنه ليتسق الترتيب والنظم ولأن مخاطبة الجم الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحد من أبناء جلدتهم أبلغ في التحدي[5].

1/ تفسير الطبري : ج1، ص:200.

2/ تفسير ابن كثير: ج1، ص:91.

3/ فتح القدير: ج1، ص:83.

4/ تفسير البغوي: ج1، ص:72.

5/ تفسير البيضاوي : ج1، ص:229.

تفسير الجلالين: ولما عجزوا عن ذلك قال تعالى: **(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) البقرة:24**[1].

تفسير أبي السعود: اذ لا محيد في آية التحدى من تجريد الخطاب وتخصيصه بالكفرة[2].

تفسير النسفي: المراد به النزول على سبيل التدريج والتنجيم وهو من مجازه لمكان التحدى وذلك أنهم كانوا يقولون لو كان هذا من عند الله لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة[3].

مما سبق من حديث يمكن للمتدبر والمتأمل فيه أن يخلص إلى إن إعادة النظر في موضوع الإعجاز والتحدي سيبعد التفكير عن الإنزلاق إلى هذا النمط التقليدي من الفهم والادراك غير الصائب؛ إذ إن الله، تعالى، أسما وأعلا مكانة وأجل، شأنًا، من أن يتحدى مخلوقًا، ضئيل الشأن، من خلقه، وإن أولئك الذين يتبنون مفهوم التحدي بين الخالق والمخلوق كأنما يقولون: ليس في الإمكان أبدع مما كان. وليست لدينا من شك في أن مثل هذا القول فيه تحديد لقدرة الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

لا حاجة بنا إلى التذكير بتلك البراهين والأدلة المادية المشاهدة التي خاطبت أناسًا طغى الجانب المادي على تفكيرهم، إلا في القليل النادر، ومن ثم فإن البرهان المادي المستخدم توافق مع استعدادهم الحسي الذي يقوم على طغيان المادة.

مارس الإنسان، في القدم، الشعور الحسي قبل التفكير العقلي؛ لذلك كان من اللازم أن تنقضي حقبة زمنية دون أن يدرك الإنسان معنىً للوجود إلا من خلال المحسوس والمشاهد، ولذلك كانت الآيات البرهانية هي الأوفق لادراكه الحسي لتؤكد على أن الرسل والأنبياء صادقين في ما دعوا إليه من وجود الله ووحدانيته ..، وهم مؤيدون بقوة الله والتي لا تحدها حدود، والدليل على ذلك ما أظهروه من آيات برهانية.

1/ تفسير الجلالين: ج1، ص:6.

2/ تفسير أبي السعود: ج1، ص:63.

3/ تفسير النسفي: ج1، ص:27.

حينما جاء أوان الرسالة الخاتمة تغير الأسلوب الخطابي وبالتالي تغيرت معه البراهين المادية لتتحول من آيات برهانية حسية إلى آيات قرآنية معنوية وعقلية، ولكنها، في ذات الآن، تجمع في دلالتها، بين الآيات البرهانية والآيات القرآنية المعنوية والعقلية التي تخاطب العقل الإنساني المدرك، فالرسالة المحمدية جاءت جامعة وحاوية للآيات البرهانية لأن تصديق المسلم بالرسالة المحمدية يوجب عليه ويلزمه بالإيمان بالرسل السابقين وبما جاءوا به من آيات برهانية حدثت بها الآيات القرآنية، وبهذا صارت قطعية الثبوت ولا مجال للشك فيها عقلاً ومنطقًا، ولعل هذا هو ما جعل من الإسلام رسالة عامة للعالمين والإنسانية كافة، يقول تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) سبأ: 28.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) الحج: 107-112.

المحور الثالث

الأدلة المادية والنواميس الكونية

تحيط بحياة الإنسان الكثير من الأمور الغيبية، وهي بدورها تحيطها ظلال كثيفة من الغموض وعدم الوضوح، الأمر الذي يجعل الإنسان في حيرة من أمره لا يدري ماذا يفعل؟؟!!، من هنا تتشعب الطرق بالناس: فمنهم من يؤمن بتلك الغيبيات ويسلم بها بشكل مطلق دون جهد عقلي (Effort Intellectuel) ولا يتعب نفسه بالتفكير فيها، جريًا على عادة السلف من الأباء والأجداد:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) البقرة: ١٧٠.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) المائدة: ١٠٤.

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ) يونس: ٧٨.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ) لقمان: ٢١.

أما الصنف الثاني فهم أولئك الذين يطلبون الدليل والبرهان ويعتمدون، في إيمانهم، على التفكير والاستدلال العقلي في مسألة الإيمان بالغيبيات أو الكفر بها، فيجهدون عقولهم بالبحث والتفكير المستمر دون كلل أو ملل، ومن خلال إعمال العقل بالتفكير تنبسق أصناف أخرى، فهناك من يهتدي بعقله إلى التصديق والإيمان التام حتى يبلغ درجة اليقين، وآخرون تسوقهم جهودهم الفكرية والعقلية إلى الكفر بالغيب كفرًا صريحًا لا لبس فيه ولا ريب فينكرون كل ما لا تدركه حواسهم الظاهرة بالمطلق، وبين هؤلاء وأولئك فئة ثالثة وهم الذين يقضون حياتهم في ظلال الشك دون أن يبلغوا مرحلة اليقين إلى أن يدركهم الموت:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ

طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَ أَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) الحج: ٥.

يقول المعري:

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا * دين وآخر دين ولا عقل له

ومن البيّن أن المعري، هنا، يشير إلى الخلاف بين الفريقين ورأي كل فئة، من الفئتين، في الأخرى، فذوو التسليم المطلق يرون أن ذوي العقول كفرة ولا دين لهم، ويبادلهم أصحاب المعرفة العلمية والنظرة العقلية ذات الاحساس، فهو شعور متبادل بين كلا الطرفين، حيث يعتقد أصحاب العقل والمنطق، أن أولئك النفر، ممن عطلوا آلة الفكر لديهم، لم يدركوا حقيقة الدين، وإنما وقفوا في الساحل لأنهم لم يتعلموا السباحة في هذا المحيط المطلاطم الأمواج؛ الأمر الذي حدا بهم إلى السير في ركاب الآخرين دون فكر أو نظر. وما كان منهم إلا أن بذلوا كل جهودهم في العمل على تقديس كتب التراث القديم، بل وصنعوا من أفكارهم سياجًا يحيطون به تلك الهالة المقدسة، لديهم، وظلوا عاكفين على عبادة أصحاب تلك الأفكار القديمة، دون إعمال العقل فيها، سواء أكانت تلك الأفكارًا صائبة أو خاطئة، فالأمر سيان عندهم، ولا يجوز توجيه سهام النقد أو تصويبها نحوها، لأن الشئ المهم، في رأيهم، هو المصدر لا الجوهر. فتحنطت مجهودات ذوي الجمود الفكري، لا أقول في متحف التاريخ، بل في معبد التاريخ الذي جعلوا من أنفسهم حراسًا عليه لا يسمحون بدخوله إلا لمن كان يسير وفق نهجهم ويعتقد معتقدهم الذي يرون أنه هو الباب الوحيد المنجي من الهلاك في الدار الآخرة. ولكن الحقيقة، التي لا مراء فيها، هي: إن الدين لا يمكن أن يضطهد أحدًا من الناس، ولكن الذي يضطهد هم رجالات السلطة السياسية الذين يعملون على استغلال الدين، كذريعة، لتحقيق مآربهم وأهوائهم الشخصية والمتمثلة في شهوة الحكم السيطرة عليه[1]، ولا نقول بذلك في من يتعصب للدين فقط ويستغله لأغراضه، فهناك، أيضًا، من يتعصب ضد الدين فيعمل على محاربته ومحوه من النفوس ليحل محله أفكارًا ومعتقدات توافق هواه وتعينه على

1/ سلامة موسى: حرية الفكر وأبطالها، ص: 39، وزارة الثقافة والفنون والتراث (قطر) 2012م.

تحقيق مبتغاه، فمما اشتهرت به الثورة الفرنسية، في أول أمرها، من غلو وتعصب ضد الدين، أنها ألقت التقويم المسيحي، والأعياد المسيحية، ولكن أكثر الأمور غرابة، مع تلك الحرب الشعواء ضد الدين، هو أنها ابتدعت ديانة جديدة لربة الأذهان[1]. وبهذا يمكن القول بأنه لا خير في كلا الفريقين، المتعصبين للدين والمعصبين ضده، إن كان الغرض هو تحقيق الأطماع الشخصية.

ولعل مفهوم الإيمان بالغيبيات، أو الكفر بها، يستند إلى ركنين أساسيين:

. أولاً: الإيمان الحسي المبني على الأشياء الملموسة والمحسوسة بالحواس الظاهرة، وهو الشكل أو النمط التفكيري المبسط والأنسب والأقرب إلى أسلوب حياة أولئك الماديين الذين يؤمنون بالغيب مطلقًا حذوًا لخطوات السلف السابقين دون أن يحيدوا عن طريقهم قيد أنملة، سواءً اهتدوا أم ضلوا:

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) المدثر: ٤٥.

. ثانيًا: الإيمان العقلي القائم على البحث عن الدليل والبرهان أولاً، ومن ثم تأتي مرحلة إخضاع ذلك الدليل العقلي إلى التمحيص والمناقشة الفكرية والعقلية، فإما أن يثبت ويقوى الإيمان في النفس ويطئن إليه القلب، وإما ألا يثبت، فيبحث الفرد عن دليل آخر يعضد ما لديه من الأدلة والبراهين الإيمانية حتى يخرج من ظلمات الشك إلى نور اليقين، ولا شك، عندي، أن هذا الأسلوب العقلي هو الأمثل والأنسب لفهم وإدراك ذوي التفكير التجريدي أو المجرد من المادية ممن لا يركنون إلى الخمول الفكري والجمود الذهني ويجهدون عقولهم بالتفكير قبل أن تستقر على الإيمان.

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) البقرة: ٣ – ٤.

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) آل عمران: ١٩١.

1/ نفس المصدر، ص: 197.

إن كثير من الناس يعتقدون، بل ربما يجزمون، بأن الحوادث الخارقة للنواميس الكونية تمثل الدليل القاطع على وجود إله لهذا الكون[1]، ويستدلون على ذلك بما جاء به الرسل، عليهم السلام، من آيات حسية مادية تثبت صدق دعواهم، كما حدث، من قبل، مع الأنبياء والرسل.

ولعل أولئك الذين يطلبون الخوارق، اليوم، لم يفطنوا إلى أنه ربما كان من الأصوب، أن يكون عدم وقوع مثل تلكم الخوارق الكونية هو ما يؤكد حقيقة وجود العناية الإلهية[2]، أي أن العقل الإنساني .. لا يحتاج إلى الخوارق بقدر ما يحتاج إلى التفكر والتدبر حتى يؤمن بوجود الله ووحدانيته أو تكتمل عقيدته ويتم إيمانه، يقول العقاد: ونحن هنا نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت في تواريخ الأديان، فنحن نسأل هل هذه المعجزة لازمة في تفسير مسألة من المسائل؟، فإن كان تفسير المسألة ميسورًا بدونها فلا حاجة بنا إلى الجدل في إمكانها أو استحالتها[3]، بهذا يمكن القول بأن الخارقة تأتي لغرض محدد بالزمان والمكان وتنتهي باستيفائها لذلك الغرض المحدود، ولا حاجة بعد ذلك لحديث عنها إلا كحدث تاريخي ليس إلا.

ويحدثنا صاحب كتاب البداية والنهاية عن أبي بكر الصديق، حين سمع خبر الإسراء، فيقول: "وبادر الصديق إلى التصديق وقال إني لأصدقه في خبر السماء بكرة وعشية أفلا أصدقه في بيت المقدس"[4]، ولم يطلب دليلاً أو برهانًا على صدق رسولنا الكريم، عليه أفضل صلاة وأتم تسليم، والإسلام، كما في رأي العقاد، يضع المعجزة في موضعها من التفكير ومن الاعتقاد فهي ممكنة لا استحالة فيها على الخالق المبدع لكل شئ، ولكنها لا تهدي من لم تكن له هداية من بصيرته واستقامة من تفكيره. فمن مرت به آيات الأرض والسماء ولم ينظر إليها ولم يعرف منها دينًا خيرًا من دين الوثنية

1/ أحمد بن محمد بن خالد السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ص: 1993.

2 / والتر إيزاكسون: أينشتاين حياته وعالم – ترجمة: هاشم أحمد محمد – ص:616.

3/ عباس محمود العقاد: حياة المسيح، ص:147، الإدارة العامة للنشر (مصر) 2005م.

4/ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء: البداية والنهاية، ج3، ص:110، مكتبة المعارف (بيروت).

والتعطيل؛ فلن تزيده الآية الخارقة إلا ضلالا[1]. يقول الغزالي: فأنت إن أخذت اعتقاد العصمة في الإمام المعصوم بل في محمد، صلى الله عليه وسلم، تقليدًا للوالدين والرفقاء لم تتميز عن اليهود والنصارى والمجوس ....، فإن لم تسلك هذه الطريق لم تفلح قط، وصرت تشكك بلعل وعسى ولعلك غلطت في تقليدك لإمامك أو للنبي الذي آمنت به، فإن معرفة صدق النبي، صلى الله عليه وسلم، ليست ضرورية[2].

ولا يخفى على الفطن المتوقد الذهن أن الغزالي بحديثه هذا إنما يرمي إلى حث الناس على استخدام القوى العقلية والادراكية حتى يدركوا أمور عقيدتهم، ويستبصروا بما هم مقبلين عليه من حساب أخروي، فلا يخوضوا مع الخائضين أو يسيروا في ركاب السائرين دون وعي منهم، ولا تفكر أو هدى من عقل مستبصر؛ قال علي، رضي الله عنه، (لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله)[3].

إن العقل الإنساني، اليوم، يتساءل، ما هو سر تراجع الخوارق أو ما هي الأسباب التي أسهمت في انحسار ظهور الخوارق؟ بل ونحن الآن نشهد اختفاءها وانقطاعها بصورة لا تخفى على العين، لقد توارت تلك الخوارق لتفسح المجال للعقل للتفكر والتأمل والتدبر .. وقد كانت في ما مضى كثيرة جدًا بحيث أنها تحتاج إلى جهد لاحصائها، ولا نشك في أن انحسارها واختفاءها يؤكد على أن الكثير من تلك الخوارق لم يكن حقيقيًا (الخروج عن نواميس الكون وقوانينه)، وإنما هي ظواهر طبيعية، لم يكن الإنسان يدرك أسبابها، مما جعله يراها غير طبيعية: كنزول المطر وما يصاحبه من برق ورعد، الزلازل، البراكين، الفيضانات، الرياح والعواصف، كسوف الشمس، خسوف القمر، الأمراض والأوبئة، ..، وغيرها مما لم تدرك أسبابه، في حينها، فيعتبره الإنسان خارقة لنواميس الطبيعة، وهناك سبب آخر وهو أن العلم والتقدم المعرفي قد أخضع تلك الظواهر إلى الدراسة، يقول الفيلسوف الإنجليزي (هربرت سبنسر 1820–1903م): "وجدت معنى

1/ العقاد: التفكير فريضة إسلامية ، ص: 88، دار الهلال (مصر) .

2/ أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي: القصور العوالي (القسطاس المستقيم)، ص: 56، مكتبة الجندي (مصر).

3/ الغزالي: إحياء علوم الدين، ج1، ص: 53، دار المعرفة (بيروت).

السببية الطبيعية كأنه مفطور في عقلي؛ وتصورت، بضرب من الحدس، ضرورة التكافؤ بين السبب والمسبب، وأحسست، دون حاجة إلى من يعلمني، استحالة النتيجة التي تخلو من سببها المكافئ. وحدث عندي، من نفسي، يقين بأن السبب، إن وجد، فلابد أن يحدث بالضرورة نتيجته مع جميع تحدياتها كمية كانت أو كيفية. وقادني هذا الاتجاه العقلي إلى نبذ الفكرة المألوفة عن خوارق الطبيعة، وانتهيت إلى أن كل ما يسمى معجزة أمر مستحيل، أعني كل ما يضاد السببية الطبيعية"[1]، إذًا فالربط العلمي بين السبب والمسبب هو ما ساعد في القضاء على العديد من الخوارق المزعومة، ولم يعد هناك مجال لظهورها اليوم، فالعلم والمعرفة العلمية قد فرضت على الناس هيبة العقل، الذي عانى الكثير من الاضطهاد على يد الكنيسة التي اتهمت العلماء بالهرطقة، فأحرقتهم، الأمر الذي أسهم في تأخر البشرية لقرون طوال، قبل أن يقول العلم الكلمة الفصل. وقد سبقت، من قبل، إلى أن الإسلام قد خاطب العقل دون أي إشارة إلى ربط الإيمان بالخوراق، بل إن القارئ للقرآن العظيم ليجد أن الله، تعالى، قد رفض أن يأتي بتلك الخوارق رفضًا قاطعًا، يقول تعالى:

(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) الإسراء:59.

وقد جاء في تفسير الآية (الإسراء:59)[2]: **(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ)** لما سأل المشركون النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يوسع لهم مكة ويجعل الصفا ذهبا أتاه جبريل عليه السلام فقال: إن شئت كان ما سألوا ولكنهم إن لم يؤمنوا لم ينظروا وإن شئت استأنيت بهم فأنزل الله تعالى هذه الآية ومعناها: أنّا لم نرسل بالآيات لئلا يكذب بها هؤلاء كما كذب الذين من قبلهم فيستحقوا المعاجلة بالعقوبة **(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً)** آية مضيئة بينة **(فَظَلَمُوا بِهَا)** جحدوا أنها من الله سبحانه **(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ)** أي، العبر والدلالات **(إِلَّا تَخْوِيفًا)** للعباد لعلهم يخافون القادر على ما يشاء.

1/ أميل بترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة الأسرة (القاهرة) 2013م

2/ الوجيز للواحدي، ج1، ص:639

فقد سبق وأن قدمت تلك الآيات لأمم من قبل فأنكروها ولم يؤمنوا بها، يقول تعالى:

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) الأعراف: 132.

يقول الإمام الطبري في تفسيره[1]، يقول تعالى ذكره: وقال آل فرعون لموسى: يا موسى مهما تأتنا به من علامة ودلالة **(لِتَسْحَرَنَا)** يقول: لتلفتنا بها عما نحن عليه من دين فرعون **(فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)** يقول: فما نحن لك في ذلك بمصدقين على أنك محق فيما تدعونا إليه. وفي ابن كثير[2]: مهما جئتنا به من الآيات، وهي الخوارق للعادات، فلسنا نؤمن بك، ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل آية. وهكذا أخبر الله عنهم في قوله:

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) يونس: 96-97.

قال الله تعالى:

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) الأعراف: 133.

ومن المؤكد، الذي لا شك فيه، أن تلك الآيات التي أشار القرآن إلى ذكرها كانت كثيرة جدًا منها ما جاء به الرسل كدليل وبرهان وعلامة تأيد صدق دعواهم، ومنها ما طلبه المنكرون وضعاف الإيمان فآمن بعضهم وكفر بعضهم، بالرغم من أن الآية أو الدليل الذي طلبوه قد تم تحت بصرهم وسمعهم وبناء على شروطهم التي حددوها، فكان لابد أن يحيق بهم العقاب ويحل بهم العذاب والدمار، كما حدث، على سبيل المثال، لقوم ثمود الذين تمت الإجابة لطلبهم، يقول تعالى:

1/ محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج6، ص:31.

2/ ابن كثير: البداية والنهاية، ص: 563.

(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آَيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هود:64-67.

ويقول تعالى:

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) القمر: 27-31.

وكثيرً ما نقرأ في الأناجيل، أن المعجزات لا تقنع المكابر وأن الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها[1]. وإذا تتبعنا اليهود نجدهم قد مروا بالعديد من التجارب والاختبارات الحسية، منها ما قدم لهم على سبيل العقوبة على طلبهم الاستنكاري والاستهزاء برسلهم، ومنها ما قدم لهم كدليل مادي حسي حتى يؤمنوا قبل أن يحل بهم العذاب؛ يقول تعالى:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) البقرة: 55-56.

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) الأعراف: 117.

(فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) البقرة:73.

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة:63.

1/ / عباس محمود العقاد: حياة المسيح، ص:147، الإدارة العامة للنشر (مصر) 2005م.

وفي المسيحية يمثل أهل الكهف دليلاً ماديًا ملموسًا قدمه الحق، جلّ وعلا، لعباده، كبرهان على قدرته التي لا تحدها حدود، وهو دليل مقدم لمن ينكر قدرة الله على البعث بعد الموت، يقول تعالى:

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) الكهف:25.

وفي ذات الآن هناك من جاءته الآيات أستجابة لدعوته ولتطمئن قلوبهم ويزدادوا إيمانًا على إيمانهم، كما حدث للحواريين، يقول تعالى:

(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ) المائدة: 112-113.

فدعا عيسى، عليه السلام، ربه واستجيبت دعوته، لما علم الله تعالى أنهم صادقون ويحتاجون لهذا البرهان المادي الملموس، يقول تعالى:

(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) المائدة:112-114.

ولم يقف الطلب والسؤال عند أولئك النفر ممن أرسل الله، تعالى، إليهم بالرسل والأنبياء، إذ إن بعضًا منهم، أي الرسل والأنبياء أنفسهم، قد سألوا الله تعالى، سواء أكان سؤلاً كان يتردد في الصدر كسؤال عزير، عليه السلام، أو كان سؤالاً مباشرًا كما فعل كل من: إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، وقد علم الله تعالى أنهم صادقون في ما طرحوه من استفسارات، يقول تعالى:

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقر:259.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) البقرة:260.

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) الأعراف:143.

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) الأنبياء:87.

نخلص مما سبق إلى أن مهمة الرسل تنحصر في إبلاغ ما أوحي إليهم من رسالات؛ يقول تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) المائدة: ٦٧.

وليست من مهام الرسل أن يحملوا الناس على الإيمان قسرًا بقدر ما تنحصر مهمتهم في هداية الناس وإرشادهم إلى طريق الحق؛ يقول تعالى:

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) الكهف: ٢٩.

وبقليل من التدبر وبشئ من التفكر تجد أن الناس، قبل الرسالة وظهور الرسل، صنفان، صنف مؤمن ولكنه كان يبحث في الوجود عن الحقيقة الإلهية التي تدعم وتؤكد في النفس حقيقة الإيمان بوجود إله واجب الوجود وأنه واحد لا شريك له، وأنه هو من خلق هذا الكون وأوجده، وهو الذي سيبعث الموتى ويحاسبهم في يوم البعث والنشور، وهذا الصنف من الناس أشبه بإبي الأنبياء ،إبراهيم عليه السلام، أما إذا التفتنا إلى الصنف الآخر، وهو صنف من الناس طغى عليه الجانب الحسي وأحكمت المادة سيطرتها على قلبه وعقله فعميت تصيرته فلم تدع له مجالاً للتفكر والتدبر في هذا الوجود فلا فرق بينه وبين الأنعام:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) الفرقان: ٤٤.

ولم يكن، لهذا الصنف، استعداد عقلي، من قبل، ولا تفكير، بعدي، في مسألة الوجود الإلهي؛ لذلك تجدهم غير مؤمنين بشئ مما سبق بل ومنكرون كل الإنكار لفكرة الوجود الإلهي بالكلية؛ وعندما جاء الرسل برسالاتهم الربانية الحقة تأكد للصنف الأول حسن وصدق توجهه فآمن وصدق واتبع الرسول الذي بعث إليه اتباع الوليد لأمه في ظلمات الليل في الأرض الوعرة ووثق بهم ثقته بأمه فلم يخالفهم في شئ مما جاءوا به، فهو أشبه بالأرض الصالحة للزرع حينما يأتيها الغمام ويهطل عليها الغيث، أما الصنف الآخر فلم تزده تلك الرسالات إلا كفرًا وبعدًا عن فكرة الحقيقة الإيمانية والتصديق بها لأن بفكرة الإله والبعث لم تكن متوفرة في محيطه التفكيري..، وهو بذلك أشبه بالأرض الجدباء لا تنتفع بماء؛ يقول تعالى:

(وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) الأنفال: ٣٢.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا 89 وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا 90 أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا 91 أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا 92 أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا 93 وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا 94) الإسراء: ٩٠ – ٩٦.

وقد ثبت عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ وكذلك من فقه في دين

الله نفعه الله بما بعثني به فعلم وعمل وعلم ومثل من يرفع بذلك رأساً مثل القيعان التي لم تمسك ماء ولا أنبتت كلأ"[1].

قال ابن إسحاق[2]: عن رجال من قومه قالوا إن مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنا نسمع من رجال يهود كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) البقرة: ٨٩.

ويمكن الاستدلال على تأثير الرسل والرسالات بما يحدث الآن من الذهاب إلى الكواكب المجاورة للأرض عبر رحلات الفضاء الباحثة عن الحياة في تلك الكواكب، فمن الناس من يؤمن بوجود حياة وكائنات خارج الأرض، ومنهم من ينكر ذلك ولا يعتقد بوجود أي حياة خارج كوكب الأرض؛ فإن الأخبار التي تأتي من علماء الفضاء إما أن تؤكد أو تنفي تلك الظنون وفي كلا الحالتين سيصدق بها البعض ويكذبها البعض الآخر بالرغم مما تقوم عليه من بحوث علمية حسية ومادية لا تخضع للظنون والشكوك وأهواء النفس وميولها الظني، فهي قطعية الدلالة لا ظنية، ولكن في حدود القدرات والإمكانات المادية البشرية.

إن من طبيعة العقل أنه يحطئ ويصيب، وهو يستند في ادراكه، أول أمره، إلى مبدأ الحسية المادية، ولا يبلغ مرحلة التجريد العقلي إلا عبر مراحل من التدريب والمران الفكري والكد الذهني، لذلك لم يترك الله، تعالى، أمر الإيمان للعقل والسلوك التفكيري وحده، وإنما أبلغنا بالحقيقة الإيمانية، منذ البدء وبشكل صيح، على لسان الأنبياء والرسل

1/ محمد بن علي بن محمد محي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، ص: 6540.

2/ عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، ص: 195.

الذين أرسلوا لهداية البشرية من الضلال، فصدقهم البعض وكذبهم الكثير من الناس[1]، وقد تتالى الرسل وتتابع بعثهم إلى الإنسانية عبر الحقب الزمنية المتفاوتة، وهم جميعًا مجمعون على هدف واحد ألا وهو تعليم الناس وتذكير الإنسانية بالله الواحد الخالق الباعث، للأجساد والأرواح، بعد البلى والفناء.

1/ مصطفى محمود: الله في الإسلام، ص: 67، مطابع دار أخبار اليوم (مصر) 2001م.

المحور الرابع

الرسالة الخاتمة

عندما جاء محمد، صلى الله عليه وسلم، برسالته قدم الآيات القرآنية، أي القرآن العظيم، كبرهان على اثبات صدق رسالته فقدم، للإنسانية، دليلًا لا يستند إلى الجانب الحسي المادي فقط، كسابقيه، وإنما كانت آيته لا تضاد العقل ولا تعطله عن ما خلق من أجله وهو الفكر والتفكير والتأمل والتدبر ..؛ يقول تعالى:

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) هود:1-2.

يقول ابن حيان النفزي[1]:

هذا وكم معجزات للرسول أتت * لها من الله أمداد وتأصيل

غدت من الكثر أعداد النجوم فما * يحصى لها عدداً كتب ولا قيل

قد انقضت معجزات الرسل منذ قض * وا نحباً وأعجم منها ذلك الجيل

ومعجزات رسول الله باقية * محفوظة مالها في الدهر تحويل

تكفل الله هذا الذكر يحفظه * وهل يضيع الذي بالله مكفول

هدى المفاخر لايحظى الملوك بها * الملك منقطع والوحي موصول

إن ما جاء به رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم، من آيات يقوم على مخاطبة العقل والروح في الإنسان، يقول العقاد: "إن عمل محمد لكاف جد الكفاية لتخويله المكان الأسنى من التعظيم والاعجاب والثناء ...، إنه نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله ... نقلهم إلى عبادة خالق الكون الذي لا خالق سواه". بينما لم يعد لآيات البرهان التي جاء بها الرسل والأنبياء السابقون وجود إلا من خلال الآيات القرآنية المتعبد بتلاوتها آناء الليل وأطراف النهار، فالإسلام يعلم المسلم أن يحترم جميع الرسالات التي كانت قبله ويوقر رسلها ولا يرفض أحدًا منهم؛ يقول تعالى:

1/ لسان الدين الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ص: 1066.

(قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) البقرة: ١٣٦.

لقد سبق وأن تمت الإشارة إلى أن زمن الخوارق قد مضى وانتهى ولم يعد لها وجود في العقل البشري اليوم، إلا في أذهان العامة، ولعل في هذا مدعاة للتأمل والتفكر، إذ إن تلك الخوارق كانت قد كثرت في الماضي واستعملت كدلائل وبراهين من قبل الرسل والأنبياء والصالحين ..، يقول ابن خلدون[1]: أن أمر الدين والإسلام كان كله بخوارق العادة ...، وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد الخطاب الإلهي في كل حادثة ... وما يستفزهم من تتابع المعجزات الخارقة.

واعلم[2] أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، فما إن جاءت الرسالة المحمدية، وهي خاتمة الرسالات، حتى تراجع وتضاءل بل وانحسر أثر الخوارق ودورها في ترسيخ الحقيقة الإيمانية وتثبيتها في النفوس والقلوب. يقول ابن خلدون: ومن علاماتهم، أي الرسل، وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم، وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة، وليست من جنس مقدور العباد، وإنما تقع في غير محل مقدرتهم[3]، فلما انحصر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات، ثم بفناء القرون الذين شاهدوها، فاستحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان. فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد، وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهماً من المهمات الأكيدة كما زعموا، ولم يكن ذلك من قبل[4].

1/ عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون: المقدمة، ص، 284.

2/ عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون: المقدمة، ص، 259.

3/ نفس المصدر ص، 84.

4/ المصدر السابق، ص، 259.

والمحصلة النهائية هي، أن تلكم الديانات، السابقة، وما اشتملت عليه من آيات برهانية حسية، قد قامت بدورها المرسوم لها وهو أن تكون بمثابة تمهيد أو مقدمة لظهور العقيدة الإسلامية التي تأسست على دعائم العقل والتفكير، غنية عن الخوارق الكونية وخرق النواميس الطبيعية، كما أنها غنية بالآيات القرآنية، وليست في حاجة إلى شهادة من أحد لأنها تحمل في داخلها بذور نموها وتطورها فضمنت بذلك الخلود والاستمرارية، إذ إن الإسلام جاء إلى الناس في الوقت الذي اكتفت فيه البشرية من الآيات البرهانية، وأصبحت الإنسانية في أمس الحاجة للهداية الربانية، فكانت الرسالة السماوية الخالدة، هي الإسلام[1].

ولنستمع للرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو يخاطب الأنصار، وقد أحس منهم الغضب في توزيع الغنائم، فقال: "أوجدتم، يا معشر الأنصار، في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتمكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون، يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرئًا من الأنصار"[2]، والشاهد هنا هو أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد أوكل الأنصار إلى قوة إيمانهم، أما من تألفهم بالمال فقد علم ما في قلوبهم من ضعف الإيمان فأراد أن يستميلهم بما تهفو إليه قلوبهم وتركن نفوسهم إليه وهو المال، فأجزل لهم العطاء وأكثر لهم منه، وبمرور الوقت سيندثر أثر المال ويبقى أثر الروح الإيمانية.

نخلص من كل هذا، إلى أن الله تعالى قد أفاض للأمم السابقة في الأدلة والبراهين الحسية والمادية وقدم لهم منها الكثير حتى يؤمنوا بوجوده ووحدانيته ..، وكذلك قدم لهم الكثير مما يتوافق والطبيعة المادية المتجزرة في النفس الإنسانية والتي لا تحسن سوى استخدام الحواس، إذ إن التسبب العقلي، في القديم، كان ضعيفًا بل وربما كان منعدمًا لدى الكثيرين منهم، يقول شوقي ضيف: ولم تكن عندهم (العرب) ثقافة ذات معالم بينة وحتى من جهة التنظيم السياسي كان يعمهم النظام الإقطاعي ... فهم في جمهورهم

1/ الموسوعة العربية العالمية اصدار 2004م

2/ عباس العقاد: عبقرية محمد، ص: 91، وزارة الثقافة والفنون والتراث (قطر)، 2013م.

بدو ليسوا بأصحاب علم ولا نظر علمي مؤسس على أسلوب علمي ... وكل هذا يدل على أن التسبب العقلي عندهم كان ضعيفاً[1]. ولا يداخلنا شك في أن وصف شوقي هو وصف عام يمكن أن ينطبق على الأمم السابقة بلا استثناء، ولا ينحصر في العرب دون غيرهم، فجميعهم كانوا بعيدين عن الادراك العقلي السوي الذي يرتقي بالملكات العقلية والفكرية لدى الإنسان؛ الأمر الذي أسهم في تقديم أدلة حسية تعتمد على خرق النواميس الكونية والتي كانت، في حينها، تتوافق وإمكانيات الادراك العقلي البشري وطبيعته المادية. وتمثل قصة فرعون مع موسى، عليه السلام، النموذج الحي على مادية العقل البشري، في الأمم السابقة، فهم لا يؤمنون إلا بالآية المادية المشاهدة بالعين، يقول تعالى:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آَيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) يونس: 90-92.

والمقارنة بين العقائد في الديانتين، اليهودية والإسلامية، هي مقارنة بين "يهوا" والإله الواحد الصمد رب العالمين، ومقارنة بين نبي التنجيم والخوارق وبين نبي الهداية والبلاغ المبين[2].

نستنتج من هذا أن الأمم السالفة كانت قد أوكلت، من حيث الإيمان بوجود الله ووحدانته ..، إلى الجانب المادي والحسي بحسب طبيعتهم المادية، بينما أوكلت الأمم اللاحقة، بعد الرسالة المحمدية، إلى التسبب العقلي والتفكير المنطقي بعيدًا عن سيطرة مفهوم الخوارق بناءً على ما تميز به العقل من تفتح ذهني وتوسع ادراكي شامل. وقد سعت رسالة الإسلام، التي ختم الله بها الرسالات، إلى الإرتقاء بالعقل الإنساني من خلال تقديم برهان مختلف عما قدم من براهين أعطيت للأمم السابقة، ولكنه، في ذات الآن،

1/ شوقي ضيف: العصر الجاهلي ، ص :81 ، دار المعارف (مصر)، ط:3 ،1960م

2/ العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص: 96، دار الرشاد الحديثة.

يتوافق وقدرات العقل البشري المتقدم والمتطور، فكانت آيات القرآن العظيم هي أعظم الآيات وخير ختام، يقول تعالى:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) القمر: ١٧.

تكررت هذه الآية في عدة مواضع من آي القرآن العظيم، وهي تشير إلى أن الخالق، جلت قدرته، قد يسر هذا القرآن للجميع بلا استثناء بحيث يحصل فيه العلماء على ضالتهم، وكذلك يجد فيه العامة من الناس حظهم من الذكر، كل على قدر عقله وطاقته واجتهاده.

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) الإسراء: ٨٨.

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الحشر: ٢١.

وقد وصفه صلى الله عليه وسلم، فقال: (قال: كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا:

(إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ) الجن:1-2.

من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط)[1].

إن العقل هو الدعامة الأساسية التي وقف عليها عمود الدين الإسلامي، إذ نجد أن الإسلام لم يعول على خوارق الأحداث كما في الأديان السابقة؛ وإنما سعى إلى الإرتقاء بالجانب الروحي وسما بالعقل البشري ليتوافق مع ما جاء به الإسلام، بعد أن

1/ سنن الترمذي ، ج5، ص:172.

كانت الرسالات السابقة تعتمد على إثارة الجوانب الحسية والمادية الملموسة في الإنسان، وبالرغم من ذلك كان الناس قليلاً ما يؤمنون يقول تعالى:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) إبراهيم: ٩.

جاء في التفسير الميسر لهذه الآية (إبراهيم:9): ألم يأتكم، يا أمَّة محمد، خبر الأمم التي سبقتكم, قوم نوح وقوم هود وقوم صالح, والأمم التي بعدهم, لا يحصي عددهم إلا الله, جاءتهم رسلهم بالبراهين الواضحات, فعضُّوا أيديهم غيظًا واستنكافًا عن قَبول الإيمان, وقالوا لرسلهم: إنا لا نصدِّق بما جئتمونا به, وإنا لفي شكٍّ مما تدعوننا إليه من الإيمان والتوحيد موجب للريبة[1].

لقد ذكرت لنا كتب التاريخ والسيرة النبوية العديد من الأحداث الخارقة للعادة والقوانين الكونية والنواميس الطبيعية، كذلك حدثنا الرواة عن الكثير من الآيات التي حدثت أمام أعين الناس، سواء أكانوا أفراداً أو جماعات، في عهد رسولنا الكريم، عليه أفضل صلاة وأتم تسليم. جاء في البخاري: "عطش الناس يوم الحديبية ورسول، الله، صلى الله عليه وسلم، بين يديه ركوة فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لكم؟، قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ما نتوضأ به ولا ما نشرب إلا ما في ركوتك، فوضع النبي، صلى الله عليه وسلم، يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. قال: فشربنا وتوضأنا"[2].

على الرغم من أن الشك، لا يتطرق للحادثة، ولو للحظة، إلا أنها لا تعتبر أصلاً من أصول الدين الإسلامي:

1/ التفسير الميسر.

2/ البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي: لجامع الصحيح المختصر، ج3، دار ابن كثير، اليمامة (بيروت)، ط3، 1407هـ، 1987م.

. أولاً: إن الدين الإسلامي لم يعول على مثل تلك الحوادث كما لم يعتبرها دليلاً يجبر الفرد أو الجماعة على الإيمان أو التصديق بالرسالة والدعوة التي بعث بها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم.

. ثانياً: إن القرآن العظيم لم يحدثنا عنها ولا أشار إليها ولو حتى إشارة عابرة، تدل على أنها تمثل أي أهمية بالنسبة للدين الإسلامي.

. ثالثاً: إن المقصود من تلك الخوارق هو حيز الرائي الذي وقعت أمامه الحادثة، وبذلك قال الشيخ محمد متولي الشعراوي في خواطره الإيمانية.

. رابعاً: إن عدم التصديق بمثل تلك احوادث لا يقدح في إيمان الشخص، ولا يخرجه من الملة.

إن الإسلام، ومنذ فجر الدعوة، قد ركز، على الحفظ المدون والمكتوب لكل كلمة أو لفظ من ألفاظ القرآن العظيم؛ مما جعل المسلمين يعكفون على حفظه في السطور قبل الصدور، ويحرصون أشد الحرص على العناية به بكل ما أوتوا من أمانة علمية وإيمان رباني، استجابة منهم لأمر رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم، الذي شدد على منعهم من كتابة أي شئ بجانب القرآن العظيم، حتى وإن كان من حديثه، (عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب علي، قال همام أحسبه قال، متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)[1]. لقد جعلت تلك العناية الفائقة بكتاب الله المسلمين يحرصون كل الحرص على حفظ آي كتاب الله، كتابة وتدويناً.

إذن فقد جاء الإسلام بأمر جديد لم يعتد عليه الناس من قبل، فبعد أن كان الرسل يأتون بآيات خارقة للنواميس الكونية، أطلت علينا الدعوة الجديدة بما يحرك تلك البحيرات الراكضة والمياه الآسنة، كأنها بركان أو زلزال يزلزل العقول التي كانت تغط في ثبات عقلي عميق، إنهاآيات القرآن العظيم.

1/ صحيح مسلم، ج4، ص:2298.

لم ينبن الإسلامي، منذ بداية نشأته، على دعائم إيمان أجوف كالطبل، وإنما قام على استثارة العقل والفكر، كما أمرنا بالتدبر والتفكر، ودعنا إلى النظر والتأمل في العديد من أي القرآن العظيم، وإلى الكون وما فيه من حركة تدعونا إلى عدم الركون والاستسلام للعادة والتقليد الأعمى، كما حدثنا بذلك قرآننا العظيم، يقول تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) البقرة: ١٧٠.

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) الزخرف:22– ٢٣.

لقد استنهض الدين الإسلامي همة العقل البشري وحضه على البحث في هذا الوجود فانظر عدد تكرار الألفاظ الداعية إلى التفكر والتدبر في الجدول التالي:

* جدول (2) يوضح بعض عدد تكرارات الأفاظ الداعية للتفكر والتدبر وغيرها.

اللفظ	التكرار
يعلمون	80
تعلمون	56
ينظرون	25
تعقلون	24
يعقلون	22
يفقهون	13
يذكرون	11
تتفكرون	10
تنظرون	7
يتذكرون	7

انظروا	3
تتفكرون	3
يدبرون	2
يدبروا	1
تفقهون	1
المجموع	286

وقد حرص القرآن العظيم أن يرفع من شأن تلك الألفاظ حيث ربطها دوماً بالجوانب العقلية والفكرية:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) الأحزاب: ٧٢.

لقد فسر معظم المفسرين لفظ الأمانة بالطاعة لله وتحمل تكاليف أداء الفرائض كالصلاة وغيرها من فروض الطاعة الواجبة لله ..، غير أن الشيخ البيضاوي قد فسر الأمانة بالعقل[1]. وسواء أكان تفسير الأمانة بأنها الطاعة أو العقل فالأمر متقارب؛ لأنه لا تكليف إلا بوجود العقل، وتأكيداً لما سبق نجد أن القرآن العظيم إذا أراد أن يذم فرداً أو جماعة نفى عنهم المعرفة وألصق بهم صفة الجهل أو شبههم بالأنعام لعدم وعيهم وإدراكهم؛ والسبب في ذلك أنهم لا يستخدمون وسائل الإدراك الحسية: كالسمع والأبصار والفؤاد والعقل، وهي في مجملها تابعة للعقل وهو المتحكم في مجال عملها:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) الإسراء: ٣٦.

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) الأعراف: ١٧٩.

1/ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، ج1، ص:324، المكتب الإسلامي (بيروت) الطبعة الثالثة، 1404هـ.

(يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) الفرقان: ٤٤.

بمثل هذه الآيات وغيرها يكون الإسلام قد أعلى من شأن العقل ورفع من مرتبته الإدراكية.

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) البقرة: ٢٦٩.

عن هذه الآية الكريمة (البقرة: ٢٦٩) يحدثنا صاحب تفسير زاد المسير فيقول: قوله تعالى: **(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ)** المراد بهذه الحكمة احد عشر قولا: أحدها أنها القرآن، ... والثاني معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره ...، والثالث النبوة ...، والرابع الفهم في القرآن ...، والخامس العلم والفقه ...، والسادس الإصابة في القول ...، والسابع الورع في دين الله ...، والتاسع العقل في الدين ...، والعاشر الفهم ...، والحادي عشر العلم والعمل. لا يسمى الرجل حكيما إلا إذا جمعهما ... [1]. والمتتبع لهذه المعاني التي ذكرت، يجد أن جميعها يدور في فلك العقل واستخداماته في مجالات، الفهم والإدراك والمعرفة والعلم ..، وهي بلا شك مفاهيم تعبر عن مدى ما منحه الإسلام للعقل وإفرازاته من مكانة فكرية سامية، (عن أبي جحيفة، رضي الله عنه، قال: قلت لعلي، رضي الله عنه، هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر)[2].

1/ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، ج1، ص:324، المكتب الإسلامي (بيروت) الطبعة الثالثة، 1404هـ.

2/ صحيح البخار، ج3، ص:1110.

. كلمة الختام:

جاء في هذه الدراسة تناول لبعض من الآيات القرآنية والآيات البرهانية؛ فالأولى (الآيات القرآنية) هي التي أنزلت على رسولنا الكريم، عليه أفضل صلاة وأتم تسلم، وهي التي أنبأتنا عن الثانية (آيات البرهان) لأن الثانية جاءت مؤيدة للرسل السابقين كمبعوثين من الله، تعالى، لهداية الإنسانية وتعريفها بوجود الله ووحدانيته وخلقه لهذا الوجود وبوجود البعث والحساب بعد الموت. إذًا فالآيات القرآنية هي التي أخبرتنا عن الآيات البرهانية المادية والمحسوسة التي استند إليها الرسل والأنبياء، عليهم السلام، لاثبات صدق دعوتهم، وفيما بعد أصبحت الآيات القرآنية، نفسها، دليلاً على صدق صاحب الرسالة الخاتمة.

. عرض النتائج ومناقشتها:

1. لا حاجة بنا إلى التذكير بتلك البراهين والأدلة المادية المشاهدة قد خاطبت أناسًا طغى الجانب المادي على تفكيرهم، إلا في القليل النادر، ومن ثم فإن البرهان المادي المستخدم توافق مع استعدادهم الفطري الذي يقوم على طغيان المادة.
2. مارس الإنسان، في القدم، الشعور الحسي قبل التفكير العقلي؛ لذلك كان من اللازم أن تنقضي حقبة زمنية دون أن يدرك الإنسان معنىً للوجود إلا من خلال المحسوس والمشاهد، ولذلك كانت الآيات البرهانية هي الأوفق لادراكه الحسي لتؤكد على أن الرسل والأنبياء صادقين في ما دعوا إليه من وجود الله ووحدانيته ..، وهم مؤيدون بقوة الله والتي لا تحدها حدود، والدليل على ذلك ما أظهروه من آيات برهانية؛ يقول القاضي عياض: ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة، إن الأنبياء عليهم السلام، يفعلون المعجزات من ذاتهم، وإنما هو شيء يفعله الله تعالى على أيديهم، تصديقاً لهم، يجري مجرى الشهادة[1].

1/ القاضي عياض بن موسى بن عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ص: 1247.

3. إن إعادة النظر في موضوع الإعجاز والتحدي سيبعد التفكير عن الإنزلاق إلى هذا النمط التقليدي من الفهم والادراك غير الصائب؛ إذ إن الله، تعالى، أسما وأعلا مكانة وأجل، شأنًا، من أن يتحدى مخلوقًا ضئيل الشأن من خلقه. وإن أولئك الذين يتبنون مفهوم التحدي بين الخالق والمخلوق كأنما يقولون: ليس في الإمكان أبدع مما كان، وليست لدينا من شك في أن مثل هذا القول فيه تحديد لقدرة الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.
4. وعن مفهوم المعجزة والإعجاز التي تتناولتها الأقلام وتناقلها الأفواه، فيمكن القول بأن الإعجاز يكمن في تفوق الند على الند أو المثيل المشابه أو المقارب له، وليست في تفوق الخالق، جلّ وعلا، على جميع خلقه، إذ إن من الطبيعي أن يتفوق القوي على الأضعف، فأين هو مكمن الإعجاز في تفوق الخالق العظيم على مخلوق ضئيل القدر؟؟!!.
5. حينما جاء أوان الرسالة الخاتمة تغير الأسلوب الخطابي وبالتالي تغيرت معه البراهين المادية لتتحول من آيات برهانية حسية إلى آيات قرآنية معنوية وعقلية، ولكنها، في ذات الآن، تجمع في دلالتها، بين قوة الآيات البرهانية وبين قدرة الآيات القرآنية على مخاطبة العقل الإنساني المدرك، فالرسالة المحمدية جاءت جامعة وحاوية للآيات البرهانية لأن تصديق المسلم بالرسالة المحمدية يوجب عليه ويلزمه بالإيمان بالرسل السابقين وبما جاءوا به من آيات برهانية حدثت بها الآيات القرآنية، وبهذا صارت قطعية الثبوت ولا مجال للشك فيها عقلاً ومنطقًا، ولعل هذا هو ما جعل من الإسلام رسالة عامة للعالمين والإنسانية كافة، يقول تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) سبأ: 28.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى

حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) الحج: 107-112.

. المصادر البحثية:

1. القرآن العظيم.
2. الأبشهي: محمد بن أحمد بن منصور الأبشهي: المستطرف في كل فن مستظرف، موسوعة الشعر العربي.
3. ابن البيطار: عبد الرازق بن حسن بن إبراهيم البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر.
4. ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، ج1، المكتب الإسلامي (بيروت) الطبعة الثالثة، 1404هـ.
5. ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون: المقدمة.
6. ابن عربي: محمد بن علي بن محمد بن عربي: الفتوحات المكية.
7. ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية، موسوعة الشعر العربي، الإصدار الأول 2009م.
8. أميل بترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة الأسرة (القاهرة) 2013م
9. البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي: لجامع الصحيح المختصر، ج3، دار ابن كثير، اليمامة (بيروت)، ط3، 1407هـ، 1987م.
10. التوخيدي: أبو حيان علي بن محمد بن عباس التوحيدي أبو حيان: البصائر والنظائر.
11. التوحيدي: علي بن محمد بن عباس التوحيدي أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة.
12. الثعالبي: أبو منصور الثعالبي: التمثيل والمحاضرة، موسوعة الشعر العربي، www.poetry.com
13. الثعالبي: عبد الملك محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي: الإعجاز والإيجاز، موسوعة الشعر العربي www.poetry.com.
14. الجرجاني: عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، ص:2. موسوعة الشعر العربي، www.poetry.com

15. السلاوي: أحمد بن محمد بن خالد السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ص: 1993.
16. شوقي ضيف: العصر الجاهلي ، دار المعارف (مصر)، ط:3 ،1960م
17. الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج6.
18. العاملي: محمد بن حسين الحارثي العاملي: الكشكول، موسوعة الشعر الغربي.
19. العقاد: عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية ، دار الهلال (مصر) .
20. العقاد: عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية ، دار الهلال (مصر) .
21. العقاد: عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، وزارة الثقافة والفنون والتراث (قطر)، 2013م.
22. العقاد: عباس محمود العقاد، مجموعة العبقريات الإسلامية، المكتبة العصرية (بيروت) 2005م
23. العقاد: عباس محمود العقاد : ما يقال عن الإسلام، دار الرشاد الحديثة.
24. الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي: القصور العوالي (القسطاس المستقيم)، مكتبة الجندي (مصر).
25. الغزالي: إحياء علوم الدين، ج1، دار المعرفة (بيروت).
26. القاضي عياض بن موسى بن عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
27. لسان الدين الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول 2009م.
28. مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، ج1، دار إحياء التراث العربي، (بيروت).
29. النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب.
30. والتر إيزاكسون: أينشتاين حياته وعالمه – ترجمة: هاشم أحمد محمد.